المستطرفات المستظرفات

في حياة السيد جرمانوس فرحات

لحضرة الكاتب الفاضل الاقس جرجس منش الماروني الحلبي

٤ الراهب (تابع)

وقد لحق صاحب الترجمة بعد ان مهد شؤونهُ في اواخر سنة ١٦٩٥ (١ برفقته المذكورين فادركهم في دير القديسة مورا وانتظم في سلكهم فرحًا مسرورًا فاحتفوا بلقاهُ كلَّ الحفاوة ولا عجب فقد كان متقدّمهم في طريقتهم ومرجعهم في كل امورهم على ما روى النَّقَلة الأثبات

فلم يلبث جبرائيل ان تزيًا بالزي المكي فابتهج لقضاء وطرهِ المشوق منهُ غاية الابتهاج واخذ يجدُّ في تحصيل الكمال الرهباني فانقطع الى كل الرياضات التي يروَّض بها طلبة الرهبانية كاعمال الاماتة وافعال التواضع والتفرّغ للصلاة والاشتغال العقليَّة واليدويَّة وما ماثل هذه الفضائل التي اهَّلتهُ ان يرتقي الى مقام الكهنوت السامي ويُسند اليهِ مسند الرئاسة على دير القديسة مورا في عام ١٦٩٧ على ما افاد صاحب تاريخ الرهبانيَّة (٢

ثم سألتهُ الرهبانيَّة ان يضع لها قانونًا (٣ يكفل لها كيانها الادبي من الاخلال

---

١) لا في سنة ١٦٩٤ كما زعم البعض ولا في سنة ١٦٩٦ كما وهم اخرون ولا في سنة ١٦٩٨ كما ورد في تنبيه فصل الخطاب المطبوع في مطبعة طابش ولا يُحتجّ بما جاء في الديوان (ص ٢٩٣) من انهُ ترهّب سنة ١٦٩٤ لانهُ خطأ من غلطة النسّاخ بلا شك

٢) امَّا رئاستهُ فلم يذكرها سوى صاحب التاريخ المذكور وامَّا رئاستهُ فذكرها غير واحد من مؤرخي الرهبانية

٣) اثبت هذا القانون الطيب الذكر البطريرك اسطفانس الدويهي بطلب المطران جرجس بيبن الشهير في ١٨ حزيران سنة ١٧٠٠ وثبتهُ الحبر الاعظم البابا اقليمس الثاني عشر بالتماس الرئيس العام الاقس ميخائيل الاهدني في ٣١ اذار سنة ١٧٣٢

والافتراط فوضعهُ (١ بالاشتراك مع اصحابهِ الافاضل (٢ في اواخر عام ١٦٩٧ وجاء يحتوي على خمسة عشر باباً في مواضيع مختلفة كالطاعة والعفَّة والفقر والتواضع (٣ وما شاكل ذلك مما يفرض على الرهبان المنقطعين الى عبادة الله وخدمتهِ مدى العمر وهكذا وافق فيهِ عموم الرهبانيَّات الغربيَّة دون ان يخالف في وجوب الانفراد عن ضوضاء العالم البشري الرهبانيَّات الشرقيَّة

فكان هذا وجوب الانفراد بجلبة التبدل ومدعاة الاضطراب في عموم الرهبانية الحديثة حتى حرَّك من الاب جبرائيل ساكن التبرُّم والسأم فاعتزل الجامعة الرهبانية قبل النذر الاحتفالي في سنة ١٧٠٠ والجأ الى دير القديس يوسف بقرية زغرتا يعيش فيهِ من صدقات المؤمنين ويشتغل بتعليم الصبية والقاء المواعظ في أيام الاحاد والاعياد على ما حكاهُ صاحبا تاريخ الرهبانية وجامع الروايات

وظلَّ هناك الى ان سكن ثائر الخواطر في عام ١٧٠٥ فعاد الى الرهبانيَّة ونذر النذور الثلاثة العفَّة الدائمة والطاعة القانونية والفقر الاختياري ففرح بهِ اخوانهُ فرحاً عظيماً لما انهم كانوا بمثلهِ يقتدون وبعلمهِ يفخرون والى رأيهِ يرجعون في عويص المسائل والمشاكل

وفي سنة ١٧١١ قصد رومة العظمى للتبرُّك بزيارة ضريحي الرسولين بطرس وبولس ولحسم الخلاف الذي احتدم بين الاب جبرائيل حوَّاء والرهبان فقضى فرض زيارتهِ ورأب متباين الصدع بعد اللَّتيا والتي بمساعدة العلاَّمة السمعاني الطائر الشهرة فاصاب عند الحبر الاعظم البابا اقليمس الحادي عشر اتمَّ الاكرام. ومن ثم رحل الى

---

١) هذا ما يؤخذ من نسختهِ من القانون مؤرخة سنة ١٧٢٥ اصوغا الآن في خزانة كتبي المخطوطة. ومن الغريب ان مترجمي المقتن ومؤرخي الرهبانية لم يذكروا هذا الامر بالرغم عن اهميتهِ وجلالهِ بل لم يذكرهُ احد من الكتبة سوى صاحب تاريخ المقاطعة الكسروانية (ص ١١٧)

٢) كذا روى صاحب المقاطعة الكسروانية متابعة لبعض مؤرخي الرهبانية غير اني لم أرَ هذا الاشتراك مصرَّحاً في نسخة القانون المذكورة فاقتضى التنبيه

٣) قد عنوا بعدئذٍ بتحسينهِ واضافوا اليهِ زيادات اقتضتها ظروف الزمان والاحوال وقد شرحهُ الطيب الذكر المطران عبد الله قرألي في كتابهِ المنون « المصباح اللبناني » *

* ومن قابل بين هذا القانون وقانون الرهبانيَّة اليسوعية تحقَّق انَّهُ مبنيٌّ في امور كثيرة على قانون القديس اغناطيوس وربما نقلهُ بحرفهِ ل. ش

اسبانية (١ ابتغاء ان يتنقد ما فيه من آثار العرب الناطقة بعظم فضلهم المنبئة باتساع حضارتهم الدالة على ضخامة ملكهم فرأى منها ما رأى وحصل على بعض الكتب المخطوطة (٢ وقفل في سنة ١٧١٢ عائدًا الى جبل لبنان غانمًا ظافرًا

وقد لاقى الامرّين في تنقله من بلدة الى غيرها في هذه الرحلة المستطيلة وكفاك بينةً على ما تحمّلهُ من المشاق والمتاعب في صقلية ومالطة وميس انهُ اعتلّ مرةً وادنف مرةً اخرى كما ترى في بعض قصائد ديوانه (ص ٢٢٩ و ٤٠٤)

وهذا ما ابغض اليه العالم وجابهُ بالكليّة وحبّب اليه حياة الوحدة فانقطع في بعض شهور سنة ١٧١٢ الى مناسك (محبسة) ماري يشاي الناسك الشهير (٣ الكائن في سفح الوادي المقدس واعتكف فيه على ما شأت النفس من الزهد والقنوت فكان يقضي يومهُ تارةً في الصلاة وطورًا في التأليف وحينًا في مطالعة سير الآباء القديسين ويحيي هزيعًا من الليل في التأمل في معاني آيات الكتاب المقدس التي كان استظهرها على ظهر قلبه منذ صباهُ وهو يردّد على نفسه قولهُ:

فان تدن على اكلٍ وشربٍ فلا تلهج بتفسير الكلام
كلام الله لا يدنوهُ شرهٌ ومتخمٌ بتنسيق الطعام

بيد ان مقامهُ من الرهبانيّة الحديثة كان يمنعهُ من قضاء وطره الروم من الخلوة والتزهد والانعكاف. وعليه عاد الى دير ماري اليشاع النبي نحو ختام السنة المار ذكرها مواصلًا السعي في سبيل خير الرهبانية التي اوقف على نجاحها حياتهُ كلها

وقد رحل الى موطنه حلب ثلاث مرات الاولى سنة ١٧٠٥ (٤ والثانية سنة ١٧١٣ والثالثة سنة ١٧٢٠ بدعوة البطريرك اثناسيوس الدبّاس ليهذّب لهُ عبارة كتاب الدرّ المنتخب ليوحنا فم الذهب *. وكان في كل مرةٍ يزور وطنهُ العزيز يحظ كل يوم احد في الكنيسة المارونية حيث ترى المسيحيين من كل الطوائف والطبقات يتقاطرن زرافات ووحدانًا مزدحمين لاستماع اوامره البارعة وزواجره الرادعة ثم ينثنون من حيث اتوا مبهوتين من فصاحته وبلاغته ومضاء حجّته في كل عظاته

١) انظر مادة (ت ل) من باب الاعراب ٢) راجع ص ٢٥ من جامع الروايات
٣) طالع في قدم هذه المحبسة وتجديدها ما ورد في الصفحة ٢٦٢ من سنة المشرق الرابعة. والمترجم لهُ اول قاطنيها بعد تجديدها ٤) لا تُذكر هذه الرحلة سوى في الصفحة ٤١١ من الديوان

* انّ هذا الكتاب كان طُبع قبل ذلك بحلب سنة ١٧٠٧ (راجع المشرق ٣:٢٥٦) ل. ش

ولمّا سيم الرئيس العام القس عبد الله قرالّي مطرانًا على بيروت أُحيلت النيابة الى عهدة الاب جبرائيل الى ان عُهد اليه بالرئاسة العامة على الرهبانية كلها ثلاث مرات (ثلاثة مجامع) متتابعة (١ من اواخر عام ١٧١٦ الى ختام عام ١٧٢٤ وذلك على رغم تجنبه الرئاسة واباءته قبولها فابتهجت الرهبانيّة وأملت في عهده الخير فلم يخب املها لما صرفهُ من الهمة والعناية الى ما يجرُّ لها النفع الروحي ويكفل لها النجاح المبتغى وحسبك ان الرهبانية قد عدتهُ من مصافّ المحسنين اليها كما ترى في تاريخها المثبت في مختصر تاريخ لبنان للشماس انطونيوس العين طوريني

٥ الاسقف

اجمع الكتبة المعاصرون على ان المطران ميخائيل البلوزّي اسقف حلب (٢ قد تنازل عن الاسقفية عن ارتياح وطواعية عند عجزه عن القيام بمهامها لما داهمهُ من الامراض وعوارض الشيخوخة فاجمعت آراء البطريرك والشعب على اختيار الاب جبرائيل الى ذلك المقام الخطير فتأدى في الامتناع والاعتذار حتى لم يجد الى الاباءة سبيلًا فاذعن لامر البطريرك يعقوب عوّاد فرقاه الى الدرجة المطرانية باسم جرمانس في ٢٩ تموز سنة ١٧٢٥ فكان ليوم سيامته رنّة ابتهاج عظيمة ردّدتها سائر اقطار لبنان وانحاء الشهباء.

وحسبك من الادلة ان الآباء اليسوعيين الافاضل قد انبأوا في الرسائل البانية (Lettres édifiantes) ان الابرشية الحلبيّة قد ابتهجت بالسيد جرمانس غاية الابتهاج (٣ ولا بدع فان الحلبيين قد عدّوا نهار رسامته « النهار الكلي البركات والخيرات » وحسبوا انباء رسامته « مكاتيب البشائر بالافراح » على ما روى صاحب التاريخ الكنسي

وكان وصولهُ الى حلب مقرّ ابرشيته الجديدة في الـ ٨ من كانون الاول آخر شهور السنة المار ذكرها فاتيحت الجمّ الغفير من المسيحيين والوجوه اوصافٌ للابتهاج به من الالسنة لما عهدوهُ به من الهمّة والسياسة والدراية والفضائل والمعارف المشهورة

فاقبل السيد جرمانس على العمل بنيّة متقدة لا تعرف الكلل وعزيمة ناهضة لا

---

١) لا مرتين كما ورد في ترجمته المنشورة في الديوان وفصل الخطاب وباب الاعراب

٢) ارتقى الى الاسقفية سنة ١٧٠٩ وتنازل عنها سنة ١٧٢٤ وتوفي سنة ١٧٢٥

٣) انظر مجموع الرسائل المذكورة

تدري ما الملل . واوّل ما فكّر فيه حال الاسقف من حيث انهُ خليفة الرسل وابو الكهنة وراعي الكنيسة فهو صاحب الحلّ والعقد والسياسة الى غير ذلك من الخصائص وهو المولّى على التبريك والتكريس والسيامة وغيرها من الامتيازات فيجب عليهِ ان يتسلّك بالوداعة والقناعة والتواضع المقدّس وما سواها من الفضائل وان يتجنّب الضرب والكبرياء والخاصة وما شاكلها من الرذائل وقد وضع في كل ذلك القوانين المهمة التي جرى عليها بكل تدقيق حتى آخر حياتهِ السعيدة (ملخص عن مجموعة قوانينهِ)

ثم نظر الى حال الكهنة من حيث انهم بمنزلة السبعين الذين اصطفاهم المسيح الرب ليرصدوا اعمالهم وقفّا على خير الكنيسة الجامعة فسنّ لهم السنن العديدة في ما عليهم من الخضوع للاسقف وما يتعلّق بهم من تدبير النفوس وخدمة سرّ التوبة وما يقيمونهُ من الصلاة الجمهوريّة لاجل الاحياء والاموات وما يلونهُ من السلطان في توزيع الاسرار كتعميد الاطفال وحلّ التائبين ومناولة المؤمنين ومسحة المرضى الى غير ذلك. ولكنهُ اثابهُ الله كان في هذه التهذيبات أميل الى سنن الرهبان القانونيين منها الى سنن الكهنة العالمين (ملخص عن مجموعة قوانينهِ)

ثم اهتمّ بامر الشمامسة على اختلاف طبقاتهم فعرّفهم باهميّة منزلتهم في الكنيسة وما يجب عليهم فعلهُ في جنب الاسقف والكهنة وما يظهرونهُ من الحشمة في لباسهم وزيّهم وسائر افعالهم وما يقتضي ان يؤدّوهُ من الخدم في الكنيسة المقدسة وما يزدانون بهِ من الفضائل ويتنكّبون عنهُ من الرذائل (ملخص عن قوانينهِ)

ثم عني بامر الشعب فالّف القلوب على التئام والوئام بعد التقاطع والتدابر اثر حادثة شهيرة (١ واشتغل في غرس العادات الحميدة وبذل اقصى مجهودهِ في تأييد الآداب وانشاء الاخويّات والعبادات التقويّة التي لا تزال جارية على الالسنة حتى هذا العهد وابطل كثيرًا من العوائد الذميمة المطروقة في تلك الازمان (ملخص عن قوانينهِ)

ثم اجتهد باصلاح الكتّاب الماروني المشهور فامر ان يتّسع فيهِ نطاق التدريس حتى يُستطاع فيهِ تهذيب الشبيبة وتثقيفها على المنوال الحسن وان يُتمّ الطلبة الى

١) انظر خلاصة هذه الحادثة في المشرق الاغرّ (٥ : ٧٨٨ و ٦ : ٧٧٣)

صفوف وحلقات يسهل معها تخرّجهم في العلوم وتضلّعهم في الآداب الحميدة. وقد ظلّ هذا الكتّاب زاهرًا عامرًا حتى اواسط العصر الماضي حيث مالت انوارهُ الساطعة الى الغروب فغربت شمس الآداب السريانية خاصةً عن افق حلب الشهباء.

ثم صرف همّتهُ الى جمع مكتبةٍ يقلُّ اذ ذاك وجود مثلها في الشهباء وغيرها لِمَا حوتهُ من نفائس الكتب المخطوطة النادرة الوجود وجمع اليها علماء زمانهِ القادرين على صناعة التحبير كالخوري بطرس التولوي الفيلسوف الشهير (١ والقس يوسف البابي العلامة الشهير والقس عبد المسيح لبيان الطقسي الشهير (٢ والقس عطا الله زنده الكاتب والشاعر المشهور فجاء اجتماعهم اشبه شيء بدائرة علميّة كان السيد جرمانس نقطتها ورئيسها يستوري زنادهم ويختصر بعض تآليفهم ويصحح فاسد عبارتها ولا شك ان هذا العمل الخطير لم يسبقهُ اليهِ احد من الشرقيين في سالف العصور (ملخص عن جامع الروايات)

والنتيجة انهُ بذل قصارى العناية في اتيان كل ما من شأنهِ ان يعود على البشر بالخير والنفع والنجاح والفلاح في الدين والدنيا. ومع كل هذه الاعمال العظيمة والمشروعات الخطيرة كان لا يفتر عن مزاولة التأليف ومطالعة الكتب الكثيرة المتاعب باجتهاد فريد عجيب لا يتمالك معهُ المطّلع من ان يحلّهُ محلّ جهابذة العلم والفضل من الطبقة الاولى

وقد زايل الشهباء مرّتين في عهد اسقفيتهِ الاولى سنة ١٧٢١ لبعض شؤون رهبانيتهِ والثانية سنة ١٧٢٨ لامرٍ من امور اسقفيتهِ فكأني بهذا النابغة قد قُضي عليهِ ان لا يهدأ لهُ بال ولا يقرّ لهُ قرار بل ان يكون رحّالةً جوّالةً بالرغم عن اشغالهِ الكهنوتية العظيمة ومهامّهِ الاسقفية الخطيرة

ولم يزل عاكفًا على خدمة الدين والعلم والفضيلة بالتعبُّد والتأليف والارشاد حتى وردهُ داء الوردّ فاوردهُ وِردَ المنية فغربت شمس حياتهِ السعيدة عند غروب شمس اليوم العاشر (٣ من تموز احد شهور سنة ١٧٣٢ ولهُ من العمر احدى وستون سنة

١) راجع ترجمتهُ في المشرق (٦ : ٧٦٩)
٢) طالع ترجمتهُ في المشرق (٥ : ٧٨٦)
٣) لا في اليوم التاسع كما ورد في ترجمانهِ المعروفة

وثمانية اشهر سوى عشرة أيام وهي السنة السابعة والثلاثون لرهبانيته والخامسة والثلاثون لقسوسيته والسابعة لاسقفيته

فقضى ربّ الرئاسة ومضى رجل السياسة . وثلّ عرش الفضل وذلّ طود النبل . وهوى عماد الوطنيّة وتقوّض ركن النهضة الادبيّة . فراحت الاداب تُعول عليه والمعارف تندب حواليه . والحامد تبكيه ولسان العرب يرثيه . وهذا بعض ما قيل فيه :

اليوم يوم نوادب العرفان ورثا الوفا والفضل والتبيان
اليوم روض العلم جفّ غديرها فقدت عليه ذوابل الاغصان
ومكارم الاخلاق مال عمادها وا لوعتي من ذلك الميلان
ومحاضر الاداب اطفأ نورها ريح المنون وعاصف الحدثان
مرّت حروف نعيه كخناجر بمسامع الفضلاء والاعيان

وفي اليوم الـ ١١ من الشهر الآنف الذكر أقيم لهُ مأتم حافل احتشد فيه السواد الاعظم من اكليروس الطوائف الكاثوليكية وشعوبهم من الموارنة واللاتين والارمن والروم والسريان يصحبهم آباء الرهبانيات الفرنسيسيّة واليسوعيّة والكبوشية والكرملية وعلى سحنة الجميع سيماء الحداد والشجن كأنّ عليهم الطير فاودعهُ اللحد الهيأ لهُ تحت هيكل مريم العذراء المعروف بهيكل الورديّة في كنيسة القديس الياس القديمة بين سيول العبرات والرحمات وفتح الله لروحه الطاهرة ابواب جنانه اذ أغلق باب الجدث على جثمانه

ولقد رثاهُ تلميذهُ وصديقهُ العارف ببسطة علمه وسعة فضله الفاضل النبيل الخوري نيقولاوس الصائغ الشاعر المشهور بقصيدة محبرة (تُرى في ديوانه ص ٢٤٠) هذا مطلعها :

ألا انّ متن الجد ثُلّت دعائمهْ ورمح سناء الفضل اعتت سمائلهْ

(البقيّة لعدد آخر)

اهمّ الحوادث

في سنة ١٩٠٣

نظرُ لحضرة الاب انطون رباط اليسوعي

انضمّت سنة ١٩٠٣ الى تاريخ الماضي داخلة في خبر كان فلم يأسف الكثيرون